الاغتراب في رواية " عصفور من الشرق "
لتوفيق الحكيم

د/ عبد القادر شريف بموسى

جامعة تلمسان

لعلّ أهمّ ما يميّز هذه الرواية عن باقي الروايات الحضارية الأخرى وما يجعلها تختلف عنها في آن واحد ، هو أنّها تطرح رؤية نقدية وهجائية للغرب يحملها البطل منذ أن وضع قدمه في قلب العاصمة الغربية " باريس ". فهو – على خلاف أبطال الروايات الحضارية الأخرى – لا يتأثّر بالغرب وإنّما هو مرتبط بشرقه إلى أبعد الحدود. فشخصية " محسن " في " عصفور من الشرق " شخصية إنسان مثقف صاحب علم ومعرفة ، إلاّ أنّه يمثّل بكلّ أبعاده النفسية والفكرية موقفا حضاريا عاما وهو موقف الحضارة الشرقية (عندما عادت إليها الروح في مطلع القرن العشرين بعد ثورة 1919 بمصر) تجاه الحضارة الأوروبية الحديثة ، عندما خرجت أوروبا من الحرب العالمية الأولى (1914-1918) جريحة منكسرة على الرغم من انتصار بعض محاورها ، إلاّ أنّها بدأت تشكّ في مستقبل حضارتها ككلّ(**1**).

كما أنّ المكان في هذه الرواية هو البيئة الغربية فقط ، بينما البيئة الشرقية غائبة عن صيرورة أحداث " عصفور من الشرق ". فالبطل موجود في الغرب منذ بداية الرواية حتّى نهايتها ولا يعود إلى شرقه عكس أبطال الروايات الأخرى في هذا البحث. وكأنّ المؤلّف أراد أن يحمّله رؤيته الفكرية عن الغرب والشرق فأرسله إلى أوروبا لغرض واحد وهو إثبات ضعف الغرب الرّوحي ونهاية حضارته المادية ، ومن جهة موازية إثبات يقظة الشرق وقوّته الروحانية بما تحمله من قيم إنسانية.

وعلى هذا ، فالبطل لا يعود إلى شرقه بعد مكوثه في باريس ، فلا نجد أثرا لعدم تأقلمه مع الشرق بل على العكس فهو ، منذ بداية الرواية إلى نهايتها يحمل شرقه معه أينما حلّ وارتحل، وهو مجسّد في السيدة زينب ؛ بل إنّ مؤلّف هذه الرواية توفيق الحكيم – والبطل وراءه – يهدي هذا العمل إلى حاميته السيدة زينب(2) وهذا له دلالته الكبرى الّتي توضح رؤية الكاتب الفكرية الشرقية المتطرّفة نوعا ما والمبالغ فيها والّتي يطرحها في هذه الرواية.

فإنّ الحكيم وقد أخذ يصوّر الحضارة الشرقية ويَسمُها بالروحانية والغربية بالمادية ، فشل كذلك في تقديم صورة صادقة للمجتمعين. لقد أغمض عينيه عن تخلّف بني وطنه ، وأخذ ينظر نظرة مجرّدة للقضية الذهنية الّتي يعالجها ممّا جعله لا يلتفت إلى

الهوة الحضارية بين الجانبين. وهذا ما جعله في الأغلب يقدّم نماذج لعادات وتقاليد هنا وهناك أو أنماط حياة يراها خالية من الروحانية في الوقت الّذي تجاهل فيه ما كان يرسف فيه وطنه من قيود استعمارية، وتخلّف في شتّى نواحي الحياة. ولعلّ بطله محسن – بموقفه المثالي الخيالي– لا يمثّل إلاّ نفسه أو أفكار كاتبه ، وليس بإمكان شخصيته أن تصوّر الشخصية المصرية(3).

ومن هنا يمكن لنا أن نلخّص هذا التحليل فنقول : إذا كان البطل لم يغترب عن شرقه المثالي فهو من غير شك مغترب عن بيئته المصرية الحقيقية ومع المجتمع المصري الواقعي الّذي كان يعاني (أثناء سفر محسن إلى باريس ومناقشـــاته الفلسفية والفكـــرية لمادية الغرب وتفوّق روحانية الشرق) من ذلّ الاحتلال المتمثّل في الوصـــاية البريطانية على مصر والتخلّف العلمي والمعرفي.

و يتجلّى لنا هذا الاغتراب و هذه الغربة بشكل سافر، أثناء وجود " محسن " في البيئة الغربية ؛ فالكاتب توفيق الحكيم يقدم لنا بطل روايته وكأنّه لا يمتّ بصلة

للواقع الّذي يعيش فيه والّذي هو باريس ، ولا يمكن لنا أن نفهمه إلاّ من خلال علاقاته بصديقته الفرنسي « أندريه » و« سوزي ديبون ».

ومع أنّ صديقه الفرنسي يعترف لزوجته بأنّ البطل غريب الأطوار وأنّه يعرفه حقّ المعرفة(4)، إلاّ أنّه – في الحقيقة – لا يكاد يعي شخصية محسن حقّ

المعرفة لأنّه لو كان كما يقول ، لاستطاع أن يتنبّأ بسلوكه وأفعاله ولما تعجّب من جلوسه فترة طويلة يتأمّل عاملة شباك تذاكر مسرح « الأوديون » معاتبا إيّاه بقوله :

« – لا !...حقيقة لا !...إنّي لا أستطيع أن أنفق عمري جالسا هكذا...إنّ الزمن شيء لا تعرفونه أنتم معشر الشرقيين، ولا يعنيكم أمره !...

– لقد تحررنا منه!...

فحملق « أندريه » في « محسن » مليّا ، ثم صاح :

– آه أيها الشرقيون !...أ أنتم بلهاء أم أنتم حكماء ؟...هذا ما يحيّر !...

– تلك عبقريتنا !... »(5)

يبدو البطل لصديقه الفرنسي في صورة مثقف شرقي لا يفكر في مشاكل الآخرين إلاّ من داخل قفص معنوي مغلق. فإجابته الأخيرة هذه « تلك عبقريتنا !... » تدلّ على إحساسه بتفوّق بيئته الشرقية على الغرب وعلى اغترابه الشديد عن هذه البيئة المادية الّتي يُعتبر عامل الزمن والوقت أحد أهمّ مقوّماتها وركائزها.

كما يتّضح لنا، اغترابه وعدم تأقلمه مع الغرب ، جليا من خلال الحوار الّذي دار بينه وبين " جرمين " زوجة أندريه، إذ دلّته على الطريقة الّتي يصل بها إلى قلب « سوزي » تتمثّل في شرائه زجاجة عطر « هوبيجان » صغيرة بعشرين فرنكا يقدمها لها هدية، فسارع إليها وقال غير مصدق :

« أحقا ما تقولين ؟...

فابتسمت جرمين وقالت في صوت المتعجب :

- يدهشني أن فتى ذكيا مثلك يجهل هذا !...

- قارورة « هوبيجان » فقط ؟...ثمنها عشرون فرنكا !...إنّك تبالغين يا سيدتي !...إنّها لجديرة أن أضع تحت شباكها قلبي كله !...

- أين صاحبتك يا محسن ؟...

فأجاب « أندريه » في الحال عن صديقه باسما :

قلت لك يا « جرمين » إنّه لا يعرف من هي ، ولا يدري عنها شيئا !...

فقال محسن دون أن يخرج عن هدوئه :

- هذا صحيح !...

- يا للغرابة !... وأين تراها إذن ؟!... »(**6**)

وكأنّ استغراب جرمين يقول : يا لاغترابه عن قيم الحضارة الغربية وبيئتها؟. لا شك أنّ البطل من طينة أخرى غير الّتي تعوّدت جرمين عليها. فمحسن لا يعرف شيئا عن هذه المرأة/ سوزي الّتي يريد أن يقدم قلبه كلّه لها ، فهو غريب عنها وعن ما تمثله في الواقع. يراها بعيني خياله، ملكة من ملكات ألف ليلة وليلة تشرف على الناس من شرفة قصرها. بينما هي في الواقع عاملة في شباك تذاكر مسرح " الأوديون "؛ بل إنّ علاقته بها هي اللاّعلاقة حيث ينعدم الاتّصال بالآخر منذ البداية. فعلاقته بها لا تتعدى مجيئه يوميا إلى شباك المسرح وينتظر أن يصبح خاليا من الناس ثم يتقدم إلى الفتاة قائلا : « بونجور مدموازيل »، فترد عليه التحية، فيقف يُطيل النظر إليها صامتا ، ثم يتحرك قائلا : « أورفوار مدموازيل » ويمضي لشأنه. هذا كلّ ما يفعله يوميا، ومنذ أسابيع(**7**).

هاتان العبارتان اللّتان يتفوّه بهما في هذا الحوار الصامت ، تُلخّصان عالَمه الذاتي الّذي قُطعت فيه جسور الاتّصال مع الآخر. إنّ « بونجور مدموازيل - Bonjour Mademoiselle » هي الإشارة إلى أنّ الحوار قد بدأ

سواء تكلّمت هي أم لم تتـــكلّم و« أورفوار مدموازيل Au revoir - Mademoiselle » هي الإشارة إلى أنّه قد انتهى...فهذا الحوار الصامت ، هذا الصمت المتكلّم ، هـــذا اللاّ اتّصال مع الآخر هو الّذي ينبئنا باغتراب محسن عن الواقع الّذي يوجد فيه حيث ينعدم الاتّصال بالآخر(**8**) ، ولا أدلّ على ذلك تقديمه لببغاء هدية لها.

فالببغاء هنا كان الوسيط بينه وبينها ؛ لم يكن هناك اتّصال مباشر بين عالمه الخيالي وعالمها الواقعي إلاّ عن طريق هذا الببغاء ، من هنا يتّضح لنا مدى اغترابه عن عالم الواقع الّذي يعيش فيه وهو الواقع الغربي ببيئته الباريسية المادية.

ولعلّ خوفه من هذا الواقع الّذي قد يسبب له آلاما نفسية كبيرة هو الّذي جعله يتصرّف معه بهذا الشكل الحذر، أي يتّصل معه عن طريق وسيط (ببغاء). كما أنّ رمزية الببغاء لا تخفى علينا ، فهو طائر ، والطائر يحطّ بسرعة على الأرض لكن سرعان ما يحلّق بسرعة كذلك في الجوّ إذا ما أحسّ خطرا يتهدّده على الأرض. وهذا هو حال نفسية البطل فهو كببغائه يتّصل بالواقع الغربي المادي/ سوزي بحذر شديد فإذا ما أحسّ بإحباط وألم منه ، يعود سريعا إلى عالمه السّماوي الخيالي مبتعدا بنفسه عن هذا الواقع المؤذي والمؤلم.

لم يرد البطل أن يعرف واقع " سوزي " وإنّما أدخلها مملكة خياله وواقعه هو لتصبح ملكة من ملكات ألف ليلة وليلة ، يقدّم لها نفسه ثمنا لنظرة عطف منها. لكنّ صديقه أندريه يعيده إلى هذا الواقع الّذي أنكره ويفتح عينيه عليه « - أرأيت؟... إنّها فتاة ككلّ الفتيات!... وعاملة كآلاف العاملات... تلك الّتي أسكنتها قصرا من قصور ألف ليلة وليلة، وجعلتها تنظر من عليائها ، إلى مواكب النّاس المتدفّقة تحت شباكها... »(**9**)

ولكنّ سوزي لا تنظر إلى محسن إلاّ على أساس أنّه مجرد ببغاء عزيز ومسلي لبعض الوقت. وحينما يكتشف بطل الرواية المثقّف حقيقة هذا الواقع الغربي المادي (

سوزي) يدرك أنّ ثـــمّة هوة شاسعة تفصل بينه وبين الثقافة الأوربية بكلّ أبعادها القائمة على روح المنفعة والأنانية والسخرية. هذا ما عبّر عليه في رسالته الأخيرة ، إلى سوزي : « لست أحبّ يا سيّدتي أن أتّهمك « بالأنانية » ، ولكن عتبي عليك لا يعدو أمرا واحدا صغيرا : كان يحسن بك أن تخبريني بمهمّتي ؛ حتّى أحترق على علم ، وأفيد الغير عن رضا ، ولكنّك شئت أن تسخري بي من تحت « قناعك » حتّى تكون لك المتعتان !... »(**10**).

لقد سبّب العالم الخارجي آلاما نفسية حادة له ، وحينما اصطدم بالواقع الغربي المرّ(سخرية ، أنانية ونفعية) مجسّدا في شخصية " سوزي ديبون "، اتّخذ أو انتهج أسلوبا معيّنا للاحتماء منه. وهذا الأسلوب يرى « في الواقع العدو الأوحد، ينبوع كلّ ألم. فبما أنّ الواقع يجعل حياتنا مستحيلة لا تطاق ، فلا بد من قطع كلّ صلة به ، إذا كنّا نحرص على السّعادة بصورة من الصّور »(**11**). فالاغتراب هنا ، هو تلك الحالة الّتي تجعل الفرد ينفصل عن الواقع الّذي يمثّل له مصدر ألم دائم.

وبمعنى آخر يمكننا القول إنّ السلوك المباشر لمحسن الّذي يريد الاحتماء من الألم الناشئ عن احتكاكه بالواقع بما فيه سوزي ، هو الاختلاء والانزواء الإرادي والابتعاد عن الآخرين نحو عالم المثل والموسيقى والسماء ، وذلك حتّى يحصل على السكينة والطمأنينة. وقد عاد البطل فعلا إلى عالمه ، عالم الفن والموسيقى (موسيقى فاجنر وبتهوفن...) وروحانيات الشرق ومُـــثُله من خلال أحاديثه المطوّلة مع صديقه الروسي إيفان. لكن هذا النهج الّذي سلكه للوصول إلى السعادة « لا يصل إلى شيء عادة ؛ إذ سيجد الواقع أقوى منه ، وسينقلب مجنونا مأفونا لا يمدّ إليه أحد يد المساعدة ، في غالب الأحوال ، لتحقيق هذيانه »(**12**) حيث تنتهي الرواية باحتضار إيفان الّذي كان يقاسم البطل معظم آرائه ونظرته الخيالية والمثالية للشرق والغرب ، كما أنّ أندريه يترك محسنا وحيدا في باريس يتخبط في عالمه الخيالي.

ولعلّنا لا نخالف الصواب إذا ما قلنا بأنّ مردّ اغترابه عن الغرب وعدم التأقـــلم مع قيمه المادية راجع بالدرجة الأولى إلى تواصله الدائم ببيئته الشرقية الروحانية ممثّلة في " السيدة زينب " يعود إليها ويلجأ لها كلّما أحسّ بوقع الغربة على نفسيته وآلام الصدام والإحباط على ذاتـــه. فحينما يفشل في علاقته مع سوزي ويصاب بخيبة أمل وإحباط ، نجده يتذكر حاميته السيدة زينب : « ...إنّه لن ينسى السيدة زينب الطاهرة وفضلها عليه في الملمات... إنّ لها وجودا حقيقيا في حياته !... ما من مرة وقع في شدّة ، إلاّ وجد العزاء عند باب ضريحها ذي القضبان الذهبية..كلّ نجاح ظفر به في الحياة ، هو دفعة من يدها... إنّه يتخيّل هيئتها ووجهها وملامحها !... ويعتقد أنّها في السماء بردائها الأبيض ، إنّما تنظر إليه دائما وترعاه وتجعله من شأنها... آه... إنّه قد نسي حاميته الّتي في السماء!... لو أنّه أحسّ يدها على كتفه لما تعثّر في خطاه أمام صورة سوزي !... »(**13**)

لقد تزعزعت شخصيته بعض الشيء أمام مادية الحضارة الغربية (سوزي) لكنه سرعان ما تذكر بيئته الشرقية الروحانية وعاد إليها وتمسك بـــها ، وهذا ما ضاعف اغترابـــه عن هذا الواقع الغربي فأصبح لا يعي نفسه ولا يعي هذا الواقع معا. فـــ"عصفور من الشرق" مشحونة بإيديولوجيا مضلّلة ومضلّلة معا تتمثّل في ذلك الوعي الكاذب والمضلّل (بفتح اللام وكسرها معا) للبطل ، يعمى عن الواقع ويُعْمى عنه ، لا يراه ولا يريد أن يظهر له.

ولعلّ مصدر اغتراب البطل وعلّته « هو انفصاله عن الجماعات الاجتماعية الّتي كانت توفر له - في الماضي - الحماية والأمن والإحساس بالسلام. فانتقل من علاقات القرابة والجيرة، وقوامها الثقة والألفة والمحبّة ، إلى علاقات اجتماعية نفعية وسطحية ، فأحسّ في المجتمع الكبير بالضياع الاجتماعي ، والغربة وانعدام الأمن... »(**14**)

فتنقّله من شرقه وأهله وحاميته السيدة زينب ، حيث كان يعيش الأمن والطمأنينة ، إلى البيئة الغربية ليجد نفسه مقحما في علاقات اجتماعية (سوزي و ى أندريه) نفعية وسطحية ، كلّ هذا جعله يُحسّ بانعدام الأمن والضياع ، فأصبح يعيش وكأنّه غريب عن هذه البيئة آتٍ من عالم آخر أو من بيئة أخرى.

ولقد كانت صدمته بسوزي هي الّتي جعلته يحتضن رأي الروسي " إيفان " في تشبيهه أوروبا بفتاة شقراء جميلة وذكية لكنّها خفيفة أنانية لا يعنيها إلاّ نفسها واستعباد غيرها ، فسارع باحتضان هذا الرأي موحِّدا بين أوروبا وسوزي : « – نعم ، « أنانية » لا تعرف غير حياة الواقع ، ولا يهمها شقاء الغير ، ولا تحب الحياة إلاّ في... الحياة... »(**15**).

« هذا هو ذنب أوروبا وسوزي ، والمرأة : « لا تحب الحياة إلاّ في... الحياة » ، بينـــما لا يحب محسن الحياة إلاّ في ما وراء الحياة!. هذا الهرب الدائم من الحياة ، من حقيقة سوزي إلى تمثالها... من الأرض إلى السماء، يجد تتويجه في هرب إيـــفان ، ومن ورائه محسن، من أوروبا الواقع إلى شرق الأحلام »(**16**) من اتّصال محسن بالواقع إلى انعزاله في مملكة الفن والخيال وروحانيات الشرق. الواقع الّذي هرب منه البطل ، كان مدينة الغرب المعاصرة الّتي تؤمن فقط بالمادة وتقوم على استغلال الإنسان لأخيه الإنسان (كما استغلت سوزي البطل) وهذا يؤدّي بدوره إلى فتور العلاقات الإنسانية وإلى انعزال الإنسان شيئا فشيئا عن الآخرين وعن العالم الخارجي. فمنذ الثورة الصناعية – أواخر القرن الثامن عشر 1798 – و« شعور الإنسان الحديث بالعزلة والعجز لا يزال يزداد من جراء الطابع الّذي توجده جميع علاقاته الإنسانية. لقد فقدت العلاقة العينية للفرد مع الآخر طابعها المباشر والإنساني »(**17**) فلم يبق لهذه العلاقات ذلك الطابع الإنساني الروحي والخُلقي بل أصبح طابعا نفعيا يمكن له أن يتّـــخذ من أحاسيس الآخر مطيّة لتحقيق مآربه. هذا ما حصل بالفعل

لبطل الرواية مع سوزي ديبون رمز المدينة الغربية المادية الّتي تقوم على المنفعة والاستغلال.

فصورة البطل في رواية " عصفور من الشرق " هي صورة مثقف شرقي مثالي، وإنسان حالم ، بل ومُغرق في الخيال « إنّك رجل خيالي ، وهذه مصيبتك ! قالها أندريه وهو ينظر إلى " جرمين " فأمّنت على قوله برأسها وأضافت : – من غير شك لا سبب عندي لفشل محسن غير أنه خيالي أكثر مما ينبغي »(**18**) فخياله وعالمه الشرقي منعاه من الاندماج في البيئة الغربية ، فـــفشل في إقامة علاقة مع الآخر هناك ، فعاش مغتربا عن واقعه الغربي الّذي يؤمن بالمادة والنفعية وفي الوقت نفسه كان مغتربا عن بيئته الواقعية الشرقية (مصر) بكلّ ما تحمله من بؤس و فقر و احتلال ؛ فهو كان مندمجا اندماجا كلّيّـــا مع شرقه المثالي ، شرق " السيدة زينب" ،مغتربا اغترابا كلّيـــا عن بيئته الشرقية والبيئة الغربية معا.

الهـــوامـــش:

1 - ينظر : عبد السلام محمد الشاذلي – شخصية المثقف في الرواية العربية الحديثة (1882 – 1952) – مطبعة دار الحداثة – بيروت – الطبعة الأولى – 1985 – ص 273.

2 - إهداء توفيق الحكيم قبل الصفحة الأولى من الرواية الّتي تبتـــدأ من الصفحة 14 : « إلى حاميتي الطاهرة السيدة زينب » - ص 13.

3 - ينظر : عبد الحميد القط – بناء الرواية في الأدب المصري الحديث – دار المعارف – القاهرة (مصر) – ط 1 – د.ت – ص 25.

4 - توفيق الحكيم – عصفور من الشرق – دار المعارف – القاهرة - د.ط – 1974.– ص 42،

5 - المصدر نفسه - ص 59.

6 - المصدر نفسه - ص48 – 49.

7 - المصدر نفسه - ص 52.

8 - ينظر : جورج طرابيشي لعبة الحلم والواقع : دراسة في أدب توفيق الحكيم - دار الطليعة للطباعة والنشر – بيروت – الطبعة الثانية – 1979– ص39.

9 - توفيق الحكيم – عصفور من الشرق – ص 111.

10 - المصدر السابق - ص 129.

11- سيغموند فرويد - قلق في الحضارة – ترجمة جورج طرابيشي – دار الطليعة – بيروت – ط4 –كانون الثاني (يناير) 1996 – ص30.

12- المرجع نفسه – ص 30.

13- توفيق الحكيم – عصفور من الشرق – ص 95 – 96 – 97.

14- يراجع: نبيل رمزي اسكندر - الاغتراب وأزمة الإنسان المعاصر–دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية (مصر)- د.ط - 1988 - ص 288.

15- توفيق الحكيم – عصفور من الشرق – ص 152

16- ينظر : جورج طرابيشي - شرق وغرب، رجولة وأنوثة : دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية – دار الطليعة للطباعة والنشر – بيروت – الطبعة الثانية – شباط (فبراير) – 1979– ص49.

17- إيريك فروم – الخوف من الحرية – ترجمة : مجاهد عبد المنعم مجاهد – المؤسسة العربية للدراســـات والنشر– بيروت– د.ط – د.ت– ص 100.

18 - توفيق الحكيم – عصفور من الشرق – ص 47.